عمار، محمد عبد الرحمن، « مشروع كبولاني:" موريتانيا الغربية" بين المعارضة والتأييد»، **المجلة الإفريقية للعلوم الإنسانية والاجتماعية**، العدد 2، 2022، ص. 117-131

# مشروع كبولاني:" موريتانيا الغربية" بين المعارضة والتأييد

**محمد عبد الرحمن عمار**[1]

شهدت السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادي تسابق القوى الاستعمارية بغرض احتلال ما تبقى من مناطق العالم حرا، وكان لكل منها مصالح حيوية في الجهة التي يريد المحافظة عليها، بل وتعزيز السيطرة عليها.

ولكيلا يقود ذلك التسابق إلى حرب بين القوى الأوربية المتنافسة، فقد شاع استخدام الوسائل الدبلوماسية ـ المصالح التجارية أو الاستعمار التجاري ـ ومقايضة مناطق بأخرى والتنازل عن مصالح مقابل الحصول على مصالح أخرى الشيء الذي تمثل في تغاضي إيطاليا لفرنسا عن المغرب مقابل ليبيا، وبريطانيا عنه عوض مصر[2].

وإذا كان وراء هذه الحركة الإمبريالية ـ بشكل عام ـ دوافع اقتصادية، فإنها بالنسبة لموريتانيا، كانت ذات بعد استراتيجي أكثر منه اقتصاديا، ففرنسا تتمركز في المناطق المحيطة بموريتانيا[3]، ولم تكن تريد أن تعطي الفرصة، لأن تزرع في قلب إمبراطوريتها قوة أخرى، خاصة وأنها في تنافس قوي مع إسبانيا الموجودة في الصحراء، وبريطانيا المتمركزة في رأس جوبي أو الطرفاية[4]. وقد تمكنت الأخيرة بمساعدة زعيم قبيلة تكنه (بيروك بن عبد الله التكني) من إنشاء مخازن ومستودعات للبضائع، وأبراجا للجنود والأسلحة[5].

هذا في الوقت الذي كانت فيه فرنسا تحدوها الرغبة في أن تجعل إمبراطوريتها متصلة ببعضها؛ لتتمكن من إحكام السيطرة والرقابة عليها، فكان احتلال موريتانيا أمرا ضروريا، كما أنه يجعل الدول الأوربية أمام الأمر الواقع، ويخول فرنسا الإشراف على المغرب، لتبدأ تقدمها إليه؛ لتدخله من الجنوب، وبذلك يتكامل عملها العسكري مع العمل الدبلوماسي الهادف إلى السيطرة على المغرب الأقصى.

وقد يكون من الواضح أن العمل العسكري الفرنسي تجاه موريتانيا، قد بدأ-بشكل سافر-في عهد فيدرب Faidherbe الذي يمكن اعتبار عهده بداية التغلغل الفرنسي في موريتانيا، ففيه عرفت المعاهدات الفرنسية الموريتانية التي خولت فرنسا حق عبور نهر السنغال للضفة الأخرى، حيث القبائل الموريتانية، ليصبح الفرنسيون على صلة مباشرة بالمنطقة ويراقبون عن كثب أوضاعها

---

[1] أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط العصرية/ موريتانيا

[2] De Chassey, Francis, *La Mauritanie de 1900 à 1975*, l'Harmattan, Paris 2014, p. 43.

[3] لقد احتلت فرنسا الجزائر سنة 1830م، كما احتلت تونس 1881م، وتطمع في المغرب، كما أنها توجد في الجنوب وفي السنغال منذ القرن 17م الذي تم لها إخضاعه نهائيا في سنة 1817م وفي مالي وساحل العاج وغيرها منذ النصف الأخير من القرن 19م، فكان احتلالها لموريتانيا أمرا ضروريا، لتجعل مستعمرتها وحدة جغرافية متكاملة.

[4] Gilliéron, Jules Carde, *La pénétration en Mauritanie*, Découverte, Paris, 1926, p. 110.

[5] إسماعيل محمد محمد وعامر عبد الخالق، **قضية موريتانيا**، دار المعرفة، الطبعة الأولى، القاهرة، 1961، ص57.

المتذبذبة، حيث إن فيدرب قد ركز معظم جهوده على توثيق الصلات بينه وبين الأمراء الموريتانيين مستغلا خلافاتهم ومعمقا إياها، كما أن خلفاءه من بعده نحوا نحوه. بيد أنه لم يكتب لهم النجاح في التوغل داخل موريتانيا بهدف الاحتلال بالرغم من ما أرسلوه من مستكشفين أمدوهم بمعلومات من شأنها أن تمكنهم من ذلك مثل ما كتب للمستكشف كزافيه كبولاني.

كانت البيئة الاستعمارية التي تربى فيها كبولاني[6] صالحة، لأن تجعل منه رجلا متفتحا للبحث عن حلول علمية مع القدرة على تخيل مشاريع كبيرة مهما لاحت خيالية، وكان فضوليا لاستجلاء ما غمض من العلوم، الشيء الذي جعله يعكف على دراسة الدين الإسلامي والتأثير الروحي لبعض الطرق الصوفية، بل إنه أقدم على استشارة العرافين وقراء الكف[7]، فكان رجلا غربيا يجمع بين المنطق والغيبيات.

وفي الوقت الذي كان فيه كبولاني يعمل ملحقا إداريا فرنسيا في الجزائر، فقد درس فيها اللغة العربية وعلوم الدين والتصوف منه بصفة خاصة، وقد اكتشف كبولاني من هذه الدراسة مدى تأثير هذه الطرق الصوفية وانتشارها إلى مناطق بعيدة[8]؛ إذ أنها، غالبا، ما تتشعب شيعا عدة: منها ما هو منتشر في كل أرجاء أفريقيا الشمالية والغربية، وبصورة خاصة موريتانيا[9]، كما يوجد بعضها في كل أنحاء العالم.

وقد تبين لكبولاني–نتيجة لهذه الدراسة مع قوة تأثير الطرق الصوفية في المجتمعات الإسلامية- اتصالاتها الخفية وقدرتها الروحية والمادية التي تخولها أن تلعب أدوارا مهمة في المجال السياسي[10]، وعبر عن ذلك في تقرير بعث به إلى الحاكم العام بالجزائر، يقول فيه: «...إنها منظمة تنظيما قويا، وتمارس نفوذها الديني بطريقة فعلية، وتعمل على تكتل الشعب بحيث تعتبر نوعا من الحكومات داخل الحكومة: حكومات حقيقية تختص بالأمور الدينية، ولها إيراداتها الثابتة ومصاريفها الخاصة»[11].

ولما كان كبولاني على تفهم للإسلام، فإنه اقترح أن تكون السياسة الفرنسية-في مجموعها-إسلامية، وعليه، فقد رأى ضرورة إنشاء إدارة للشؤون الإسلامية في رئاسة المجلس تُعنى بجمع المعلومات التي

---

[6] ولد كبولاني سنة 1866م بقرية مارينيانا بكورسيكا، وانتقل مع أسرته إلى الجزائر، حيث استقر والده كمستوطن فرنسي هناك، وقد تعلم كبولاني بالجزائر اللغة العربية في المدرسة العامة بقسنطينية، وعند ما أتم دراسته عين موظفا في مركز إدارة البلدة، ثم عين سكرتيرا في المجلس المختلط لمديرية وادي شرق في15 إبريل 1889م، وفي سنة 1894م عين في الحكومة العامة الفرنسية بالجزائر، بوظيفة إداري من الدرجة الثالثة، والراجح أنه ظل بها حتى سنة 1897م.

[7] خليل، سعد ، **تكوين موريتانيا الح**ديثة، رسالة ماجستير، معهد الدراسات العربية، القاهرة، 1977، ص 233.

[8] Désiré-Vuillemin, Geneviève, « Coppolani en Mauritanie », *Revue d'Histoire des colonies*, Tome XLII, Paris 1955, p. 294.

[9] نشأ التصوف في القرن الأول الهجري كحركة زهد وعبادة وإعراض عن الدنيا وإقبال على الله بالقلب والقالب (الجوارح) وبدأ ينتشر في العالم الإسلامي، فكانت موريتانيا من البلدان الإسلامية التي تقبلت طرقه أصلية كانت أم فرعية، وللمزيد من المعلومات عن الطرق الصوفية في موريتانيا انظر: الخليل النحوي، **بلاد شنقيط المنارة والرباط**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1987م، ص 124 وما بعدها وكذلك عبد الله عبد الرازق إبراهيم، أضواء على الطرق الصوفية في القارة الأفريقية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1990.

[10] Désiré-Vuillemin, Geneviève, *La Mauritanie du 19ème siècle à l'indépendance*, *Introduction à la Mauritanie*, Edition C.N.R.S, Paris, 1979, p. 83

[11] A.N. M, E1/9 Rapport de Coppolani au gouverneur général en Algérie sur la mission en date du 5 novembre 1899, et Otton Loyewski, Coppolani et la Mauritanie, *in Revue d'histoire des Colonies Françaises*, Tome XXXII, 1938, p. 68.

لها صلة بالإسلام[12]، وذلك عن طريق البعثات واستخلاص الجديد منها، وإشعار الحكومة والجهات المعنية، كما اقترح، أيضا، عدم معاداة الجماعات الدينية الرئيسة، والعمل على استرضائها تبعا للظروف[13].

وقد لخص كبولاني أفكاره في كتاب أصدره بالتعاون مع زميله ديبون Depont[14]، احتوى على كل ما استخلصه كبولاني من دراسته للتصوف والطرق الصوفية، ومن أجل التعرف أكثر على تلك الطرق[15]، طلب كبولاني من وزير الشؤون الخارجية الفرنسي هانوتو Hanotaux السماح له للقيام برحلة لاستكمال عمله عن الطرق الصوفية[16]. وقد ركز كبولاني على أهمية الدور السياسي الذي تلعبه الطرق الإسلامية وإمكانية وأهمية استخدامها مع تحديد البلدان التي لم تدرس بعد[17].

وفي 24 سبتمبر 1898م، وجه العقيد ترنتينيان Trentinian تقريرا إلى وزير المستعمرات الفرنسي يذكره بمقترحات كبولاني الذي يطمح بالقيام برحلة في السودان، وهي رحلة تهدف من بين أمور أخرى إلى: اطلاع حكومة المستعمرة بكل ما من شأنه تسهيل مهمتها السياسية والإدارية هذا من جهة، ومن جهة أخرى اطلاع الشعب الفرنسي على المنفعة من الاستعمار، وعلى الظروف المنطقية التي ستنفذ فيها هذه الأعمال[18].

وفي نوفمبر1898م، كلف كبولاني بالقيام برحلة في السودان والساحل المتوسطي[19]، على أن يتصل بقبائل الحوض وأزواد، ويحاول إقناعها بالطرق السلمية بضرورة الخضوع للإدارة الفرنسية[20]، ومن بين أهداف هذه الرحلة، أيضا، دراسة الإسلام والطرق الصوفية في أفريقيا الغربية من أجل توطيد السيطرة الفرنسية[21].

**I-بعثة كبولاني ومشروع:" موريتانيا الغربية"**

وبعد أن استكمل كبولاني شروط الموافقة على الرحلة، انطلق من سان لويس في اتجاه منطقة الحوض، حيث كان اهتمامه الأول إعادة السلام بين قبيلتي بني علوش ومشظوف، التي انبهر

---

[12] Loyewski, Otton, *op. cit*, 1938, p. 9, et Désiré-Vuillemin, Geneviève, *op. cit*, 1955, p. 294.

[13] Loyewski, Otton, *op. cit*, 1938, pp. 9-10.

[14] « Les Confréries Religieuses Musulmanes › voir Désiré-Vuillemin, Geneviève, *op. cit*, 1979, p. 83, et Francis de Chassey, *op. cit*, 2014, p. 40.

[15] A.N. M, E1/9, Lettre du Ministre des colonies au gouverneur général de l'A.O. F, en avril 1898.

[16] ولد بيه محمد المحجوب، **موريتانيا جذور وجسور**، مكتبة القرنين 21/15، انواكشوط، 2016، ص 205

[17] A.N. M, E1/9, Lettre du Ministre des colonies au gouverneur général de l'A.O.F, en date du 14 novembre 1900.

[18] Coppolani, Georges, *Xavier Coppolani, Fils de Corse, Homme d'Afrique, Fondateur de la Mauritanie*, L'Harmattan, Paris 2009, p. 89.

[19] Désiré-Vuillemin, Geneviève, *op. cit*, 1955, p. 295.

[20]*Revue Géographique Internationale*, Avril 1900, Tome N° 2, p. 67, et Otton Loyewski, *op. cit*, 1938, p. 11, et Désiré-Vuillemin, Geneviève, *op. cit*, 1955, p. 295, et Ibrahima Abou Sall, *Mauritanie du Sud, Conquêtes et administration coloniales françaises 1850-1945*, Karthala, Paris 2007, pp. 329-330.

[21] Gillier, *op, cit*, 1926, p. 106.

* لكي يُرْضي هذه القبائل جاء بأحمال من كتاب دليل الخيرات للجزولي، نظر
Coppolani, Georges, *op. cit*, 2009, p. 106

زعماؤها بما أظهره كبولاني من معرفة بأحوالهم، وعلى وجه الخصوص لغتهم ودينهم*[22]. فقد عرض كبولاني على هذه القبائل الدور الإنساني الذي تنتهجه فرنسا داخل المجتمع الإسلامي، وذاك الذي اقترحته تجاه المجتمع الموريتاني بصورة خاصة، وكان لذلك دوره في استمالة بعض القبائل الموريتانية، وهي خطة استطاع كبولاني من خلالها أن يقنع هذه القبائل بضرورة الخضوع للسلطة الفرنسية في السودان، كما بادر بإرسال رسل إلى كل من ولاته وتشيت[23]، لتعلن في سنة 1899م بعض القبائل الرئيسة ذات التأثير على السودان طاعتها للفرنسيين[24] وتسديد ضريبة الرعي وحق المرور[25].

وبعد أن أنجز كبولاني مهمته في الحوض، قفل راجعا صحبة مساعده روبير آرنو Robert Arnaud إلى تنبكتو، حيث توجد قبائل الطوارق، كما زارا منطقة أزواد. وفي يوليو 1899م، أطلع كبولاني العقيد ترنتينيان على نتائج رحلته في السودان وعرض عليه المقترحات التي ينتظر من الحكومة إتباعها تجاه أقاليم الصحراء[26].

وفي نوفمبر من ذات السنة قدم كبولاني لوزير المستعمرات آلبير دكري Albert Decraisتقريرا موسعا عرض فيه خطة شاملة لتنظيم قبائل البيضان والسبل الكفيلة بوضع هذه القبائل تحت النفوذ الفرنسي[27]، وهي القبائل التي كانت تهم الحاكم العام في السنغال وتؤرقه من حين لآخر، كما عرض، في تقريره، السياسة الفعلية التي يجب إتباعها تجاه موريتانيا، واحتمالات المستقبل.

وقد قدم في هذا التقرير، أيضا، دراسة موسعة لمختلف المناطق التي تجول فيها ونمط حياة سكانها مع التركيز على الدور الكبير للشيخ ماء العينين الموجود في الساقية الحمراء، حيث كان يتمتع بمكان مرموق[28]. في الوقت الذي أوضح فيه الأهمية الإستراتيجية والسياسية والاقتصادية لهذه المنطقة[29]، وبالتالي فإن احتلال الساقية يضمن لفرنسا الربط بين المغرب وموريتانيا ومراقبة نقاط مرور القوافل التجارية التي كانت تعبر الصحراء[30]، كما اقترح إنشاء إقليم" موريتانيا الغربية" بحيث يجمع تحت لوائه كل القبائل البيضانية[31]. وبخضوع" موريتانيا" للعلم الفرنسي، فإن الأقاليم التي كانت تخضع لفرنسا ستشكل إمبراطورية متصلة الأطراف (من الجزائر وحتى أفريقيا السوداء)[32].

---

[22]Désiré-Vuillemin, Geneviève, *op. cit*, 1955, p. 295.

[23]Georges Coppolani, *op. cit*, 2009, p. 106, et Gillier, *op*,*cit*, 1926, p. 107, et Ibrahima Abou Sall, *op. cit*, 2007, p. 330

[24] Gillier, *op*, *cit*, 1926, p. 107.

[25] Gillier, *op. cit*, 1926, p. 107, et Otton Loyewski, *op. cit*, 1938, p. 11.

[26] Coppolani, Georges, *op. cit*, 2009, p. 121.

[27] A.N. M, E1/9 Rapport de Coppolani au Ministre des colonies sur la mission en date du 4 mai 1899.

[28] Désiré-Vuillemin, Geneviève, *op. cit*, 1979, p. 83.

[29] Désiré-Vuillemin, Geneviève, *op. cit*, 1955, p. 295, et Otton Loyewski, *op. cit*, 1938, p. 12, et Ibrahima Abou Sall, *op. cit*, 2007, p. 330.

[30] Loyewski, Otton, *op. cit*, 1938, p. 12, et Ibrahima Abou Sall, *op. cit*, 2007, p. 330.

[31] Deschamps (H), *Histoire générale de l'Afrique noire*, Tome II, Paris, 1971, p. 73, et Francis de Chassey, *op. cit*, 2014, p. 41, et Gillier, *op*, *cit*, 1926, p. 108, et Désiré-Vuillemin G., *op. cit*, 1979, p. 83, et Revue Géographique Internationale, *op*, *cit*, p. 68, et Otton Loyewski, *op. cit*, 1938, p. 13.

[32] Désiré-Vuillemin, Geneviève, *op. cit*, 1979, p. 83, et Otton Loyewski, *op. cit*, 1938, p. 12.

كما ذكر كبولاني، في تقريره، أن القبائل الموريتانية ذات ماض ونظم اجتماعية يجب أخذها في الاعتبار، وترتبط هذه القبائل بالإسلام بعلاقة قوية، كما أنها قد تقبل الخضوع للفرنسيين بمجرد اقتناعها بمزايا الأمن والسلام واستمرار التجارة[33].

وفي دجمبر 1899م قرر وزير المستعمرات الفرنسي أن يدرس مع الحاكم العام لأفريقيا الغربية الخطوات العملية أو التطبيقية التي تسمح بتنظيم تجمع مستقل يضم مختلف مناطق تقري" البيضان"، ليمتد هذا الإقليم من الضفة اليمنى لنهر السنغال، ثم الخط الممتد من خاي وتنبكتو، حتى الجنوب الجزائري وإلى غاية حدود المغرب[34]. على أن يدخل الفرنسيون هذا الإقليم تحت شعار: «حماية أتباع الزوايا المظلومين من بني حسان»[35]. ومن هنا يتضح ذكاء كبولاني ودهاؤه، إذ أدرك ما غاب عن ذهن سابقيه باعتماده على الزوايا الذين يملكون قوة مؤثرة على السكان، في حين يعتمدون على مبادئ دينية عامة.

وتنفيذا لهذا المخطط أرسل وزير المستعمرات الفرنسي إلى الحاكم العام لأفريقيا الغربية الخطوط العريضة التي يتعين تنفيذها بهدف تحقيق مشروع كبولاني، وقد تمثلت عناصره الرئيسة في:

1- أن توجد هذه المناطق تحت اسم" موريتانيا الغربية" مع إسناد إدارتها إلى كبولاني؛

2- أن يتخذ كبولاني لقب المقيم الفرنسي ويكون له معاونون؛

3- أن تكون اختصاصاته شاملة وواضحة المعالم؛

4- أن تفصل إدارة هذه المناطق عن السلطة المركزية في باريس، وتُضم إلى الشؤون الأفريقية؛

5- يخصص الحاكم العام لأفريقيا الغربية الفرنسية من الموارد المحلية ما يساعد كبولاني على مجابهة زيادة الأعباء المالية التي قد تنجم عن هذا التنظيم الجديد[36].

بيد أن الظروف الدولية في المنطقة لم تكن تسمح بتنفيذ المشروع بهذه الدرجة من السرعة والسهولة، ليبقى معلقا في انتظار أن تسمح الفرصة لإخراجه إلى حيز التنفيذ.

**1- مشروع كبولاني بين المعارضة والتأييد**

لقد كانت الظروف الدولية التي تحيط ببعثة كبولاني- والتي قام خلالها بالاتصال ببعض القبائل الموريتانية-مواتية في إطارها العام، ففي السنوات التي سبقت هذه البعثة، بالرغم من ما اتسم به مركز فرنسا السياسي من ضعف منذ هزيمتها في الحرب السبعينية، وحتى قيام الحلف الروسي – الفرنسي 1891م-1893م والذي أخرج فرنسا من عزلتها السياسية وقوى من موقفها الدولي[37]، بالرغم من ذلك؛ فقد عرفت السنوات التي سبقت بعثة كبولاني تحسنا نسبيا في علاقات فرنسا مع الدول الأوربية المتنافسة.

ففي سنة 1890م وقع اتفاق فرنسي- بريطاني أطلقت بموجبه يد فرنسا في الأراضي الواقعة جنوب البحر المتوسط، وكذلك من ساي Say على نهر النيجر، حتى بروة Barruwa على بحيرة اتشاد[38]،

---

[33] A.N. M, E1/9 Rapport de Coppolani au Ministre des colonies sur la mission, *op.cit*, et Désiré-Vuillemin G., *op. cit*, 1955, pp. 95-96.

[34] A. N. M, E1/9, Décision du Ministre des colonies, en décembre 1899.

[35] النحوي، الخليل ، مرجع سبق ذكره، ص 328.

[36] A.N. M, E1/9, Décision du Ministre des colonies, *op.cit*, et Désiré-Vuillemin G., *op.cit*, 1955, pp. 95-96.

[37] سعد خليل، مرجع سبق ذكره، ص 248.

[38] دولت أحمد صادق وآخرون، **الجغرافية السياسية**، الانجلو المصرية، القاهرة، 1975، ص 609، وكذلك دي – جي – فاج، تاريخ غرب أفريقيا، ترجمة وتقديم وتعليق د/ السيد يوسف نصر، مراجعة الترجمة إلى العربية د/ بهجت رياض صليب، دار المعارف، الطبعة الأولى، القاهرة1982م، ص 329، وكذلك

Sall, Ibrahima Abou, *op. cit*, 2007, pp. 323-324

فكان هذا الاتفاق يعني من بين ما يعني، أن موريتانيا اعترفت بها بريطانيا كمنطقة نفوذ فرنسية، وبالتالي اعتبرت فرنسا أن الاستيلاء على موريتانيا تبعا لهذا الاتفاق لن يواجه مشاكل من قبل الدول الأوربية وبصورة خاصة بريطانيا.

كما أن العلاقات الفرنسية – الإيطالية بدأت تتحسن منذ عام 1896م، مما قد يدعم الموقف الفرنسي، الشيء الذي انعكس في داخل فرنسا، حيث ظهرت مجموعة نشطة عبرت في سنة 1898م عن رغبتها في التسرب داخل المغرب في كثير من الأناة والحذر لتجنب المنافسات.

أما على المستوى المحلي، فقد عرفت سنة 1894م حدثين هما: احتلال فرنسا لمدينة تنبكتو، ووفاة مولاي الحسن الذي كان جدارا تتبدد عليه أطماع فرنسا التوسعية في المغرب، وخاصة مشاريعها في واحات توات، والتي احتلتها فرنسا سنة 1900م، كنتيجة للاتفاق الفرنسي- البريطاني السالف الذكر، ذلك الاتفاق الذي كان من بين أهدافه تقسيم غرب أفريقيا، وتركت بموجبه الصحراء الكبرى بأكملها منطقة نفوذ فرنسي، وهو ما يبرهن على أن احتلال واحات توات المغربية مرّ بدون حدوث ضجة دولية، بالرغم من ما بذله السلطان عبد العزيز من جهود دبلوماسية للحيلولة دون ذلك، ففتح هذا الاحتلال الباب أمام فرنسا للشروع في التوغل نحو الجنوب الغربي للمغرب وفي موريتانيا.

وبالرغم من كل هذا وبالرغم من النجاح الذي حققته بعثة كبولاني؛ فإن مشروع" موريتانيا الغربية" اعترضته عقبات لم تسمح لكبولاني أن يخرج مشروعه إلى الوجود ويجعل منه واقعا ملموسا، وقد تمثلت هذه العقبات، أساسا، في الجانب الفرنسي أكثر منه في الجانب الموريتاني.

**II- الموقف الفرنسي من مشروع كبولاني:" موريتانيا الغربية"**

لم تكن أهمية بعثة كبولاني تنحصر، في كونها، حققت بعض النتائج التي لم تحقق في العهود التي سبقتها بقدر ما تكمن أهميتها، في كونها، قد نبهت الحكومة الفرنسية ووزارة المستعمرات إلى أهمية احتلال موريتانيا الذي يتوقف عليه سياستها الرامية إلى ربط مستعمراتها في السودان الغربي بتلك التي في الشمال الإفريقي[39]، غير أن هذا المشروع بالرغم من ما له من أهمية لم يلق ترحيبا في الأوساط الفرنسية سواء على مستوى الحاكم العام لأفريقيا الغربية الفرنسية أو على مستوى وزارة الخارجية الفرنسية.

**1- موقف حكام أفريقيا الغربية الفرنسية**

عند ما وصل كبولاني إلى السنغال وعرض مشروع احتلال موريتانيا على الحاكم العام لغرب أفريقيا الفرنسية الذي لم يتريث في معارضة هذا المشروع باعتباره قد يخل بالعلاقات بين فرنسا وموريتانيا التي اتسمت بالسلام حسب وجهة نظره منذ عام 1855م وأن أي تغيير في هذه الحالة قد يؤدي إلى نتائج أكثر خطورة.

ولعل معارضة الحاكم العام شودي Chaudie لمشروع كبولاني فيه نوع من الغيرة – إن صح هذا التعبير- على أساس أن كبولاني حقق نجاحا وفي ظرف زمني قصير لم يحققه شودي، كما أن الفترة التي وصفها بالسلام لم تكن، في واقع الأمر كذلك، إذ تشير تقارير قادة مواقع بُودُورْ ومَاتامْ ودَكَانه إلى أعمال النهب والسلب اليومية[40]، مما قد يكون شاهدا على بطلان مزاعم شودي، وبالتالي يجعل من السهل على كبولاني اجتياز هذه العقبة التي أثارها شودي أمام تنفيذ مشروع" موريتانيا الغربية"، وقد ساند شودي في موقفه تجاه مشروع كبولاني التجار الفرنسيون الذين كانوا يفضلون أن تبقى

[39] Randau, Robert, *Un corse d'Algérie chez les Hommes bleus*, *Xavier Coppolani-le-Pacificateur*, Imbert, Alger, 1939, p. 75.

[40] Désiré-Vuillemin, Geneviève, op. *cit*, 1955, p. 297.

موريتانيا بعيدة عن سيطرة فرنسا، حتى يتمكنوا من احتكار تجارة الصمغ ويحددوا سعره دون تدخل حكومتهم[41].

أما الحاكم بالي Ballay، فقد أعلن أن أي تدخل في أرض البيضان لن يأت بنتيجة وغير مثمر، في الوقت الذي عارض فيه وضع قوات عسكرية تحت تصرف كبولاني، وإن كان قد قبل إعطاءه حراسة لتأمين سلامته، وإمكانية إنشاء مكتب للدراسات يعهد به إلى كبولاني[42].

**2- موقف وزارة الخارجية الفرنسية**

يبدو أن العقبة الرئيسة التي حالت بين كبولاني وتنفيذ مشروعه، في الوقت الذي اختاره كانت في موقف وزارة الخارجية الفرنسية التي لم تعر اهتماما لهذا المشروع، لاعتبارات دبلوماسية، حيث لم تجد في ضم موريتانيا أو احتلالها ما يعادل غضب كل من انجلترا وإسبانيا وألمانيا التي كانت تطالب كُلّ منها بحقوق في المغرب، وفي مناطق غير محددة لم يكن يعرف ما إذا كانت تشتمل على موريتانيا أو جزء منها[43].

ومن هنا يرتبط التنافس الفرنسي – الإسباني على موريتانيا بالمسألة المغربية، إذ تميزت أواخر القرن 19م بتدخل الدول الأوربية في شؤون المغرب الداخلية، حيث إن هذه الدول قد استغلت حق الحماية أوسع استغلال، إلى درجة أن هذه الحماية أصبحت تهدد كيان المغرب السياسي والاقتصادي إذ تجاوزت الدول الأوربية – وبصورة خاصة فرنسا وإسبانيا-حدود الحق الذي منح لها وأسرفت في منح الحماية[44].

وأمام الضغط الدبلوماسي والعسكري الإسباني كان على ديلكاس Delcassé وزير خارجية فرنسا الذي تزامن استلامه لمنصبه سنة 1899م-1905م مع إعلان كبولاني مشروع" موريتانيا الغربية"، كما يُعتبر مجيؤه بداية المسألة المغربية التي انتهت على يده ولصالح فرنسا.

أمام هذا الضغط، كان على ديلكاس أن يتصرف إزاء الموقف السياسي الخارجي المعقد، فاستفزاز ألمانيا لفرنسا خلق شعورا لدى وزارة الخارجية الفرنسية بضرورة تدبير الأمور مع الدول المجاورة لها؛ لتتخذ موقف الحياد على الأقل، إن لم يكن موقف المساندة والتأييد، فأصبح الأمر يتطلب معركة دبلوماسية[45] أكثر منها عسكرية، وعليه؛ فإن مشروع كبولاني، لا محالة، سيكون كبش الفداء؛ لتعارضه مع مطامع إسبانيا ومصالحها، فالمنطقة الجغرافية التي تضمنها المشروع تتاخم حدود مراكش، وإسبانيا هي أقرب الدول إليها، كما أن انجلترا تطل عليها من جبل طارق.

---

[41] إلهام محمد علي ذهني، جهاد الممالك الإسلامية في غرب أفريقيا ضد الاستعمار الفرنسي (1890– 1915)، دار المريخ، الرياض 1988م، ص 195.

[42] Désiré-Vuillemin, Geneviève, *op. cit*, 1962, p. 297, et Otton Loyewski, *op. cit*, 1938, p. 16, et Sall, Ibrahima Abou, *op. cit*, 2007, p. 338.

[43] إلهام محمد على ذهني، مرجع سبق ذكره، ص 195.

[44] محمد خير فارس، المسألة المغربية، القاهرة1961م، ص ص 81-82.

[45] إزاء الموقف المتأزم في المنطقة بالإضافة إلى رغبة كل دولة من الدول المتنافسة في إحراز نصر أو تقدم في المنطقة لم تكن الوسائل العسكرية تمثل الحكم الفصل؛ لأنها قد تؤدي إلى صراع كبير وتذكي نار التنافس؛ ليأخذ الشكل العسكري في وقت كانت فيه الدول الأوربية بصورة عامة تتجنب كل ما من شأنه أن يؤدي إلى حرب بينها، فكانت أنجح الوسائل هي الوسائل الدبلوماسية، وإن كان هذا لا ينفي وقوع مناوشات بين قوات هذه الدول في وقت من الأوقات، إلا أنها لم ترق إلى المستوى الذي توصف بالحروب، ولعل أوضح مثال على ذلك في ما يتعلق بالمغرب الذي مثلت موريتانيا في إحدى مراحلها جزء من المسالة المغربية، وإن كانت مشكلة موريتانيا تقتصر على فرنسا وإسبانيا- الاتفاقية السرية التي وقعت بين فرنسا وإيطاليا عامي 1901م، 1902م اعترفت فيها إيطاليا بمطالب فرنسا في مراكش مقابل إطلاق يد إيطاليا في ليبيا، انظر حول ذلك، محمد خير فارس، مرجع سبق ذكره، ص ص 174- 178.

بالرغم من أن مناطق ارتكاز فرنسا" الجزائر" تلامس حدودها حدود" موريتانيا الغربية"، فإن الأوضاع الدولية التي أحاطت بمشروع كبولاني لم تتح له فرصة التنفيذ، ومن ثم لم يكن على ديلكاس إلا أن يرسل إلى كبولاني قائلا: «...يبدو أنه من لغو الكلام لفت نظرك إلى الموقف الدولي لبعض المناطق التي ستتضمنها" موريتانيا الغربية"؛ فهناك جدال مستمر بين باريس ومدريد بصدد الحدود الشرقية للممتلكات الإسبانية في ريودورو، ومن ناحية أخرى؛ فقد وقعت معاهدة في13 مارس 1895م بين الحكومة الإنجليزية والحكومة الشريفية بشأن ممتلكات المؤسسات الإنجليزية في رأس جوبي والتي تبين مطالب إنجلترا والارتباطات التعاقدية التي أتمتها لضمان ممتلكاتها في مراكش»[46].

**3- التجاوز التدريجي للعقبات**

أمام هذه الظروف، كان، لا بد، أن يترك مشروع كبولاني، حتى تتهيأ له الظروف المناسبة؛ إذ خشي ديلكاس من إثارة مشاعر الخوف والانفعال التي قد تترتب على الإقدام على خطوة سابقة لأوانها، وعليه فإنه لم يكن أمام كبولاني سوى الإذعان للأمر الواقع، غير أن ذلك لم يؤثر، في رأيه، ولم يعتبره هزيمة، فأصر على تذكير حكومته بأهمية هذه المنطقة، وفي جلسة خاصة مع ديلكاس، تمكن كبولاني من الحصول على موافقة ديلكاس على مشروع يحدد منطقة الحماية الفرنسية في" موريتانيا الغربية"، لتقتصر على الحدود الموريتانية الحالية[47].

غير أن مشروع كبولاني أثار قلق إسبانيا على ممتلكاتها في" المراكز الساحلية المراكشية"، التي لم تكن معالمها الجغرافية قد حددت بعد، والتي كان احتلالها مبهما وغير واضح، لتبدأ جولة جديدة من المحادثات بين الدولتين بغية تحديد نفوذ كل منهما في المنطقة المتاخمة ل" موريتانيا الغربية"، لتنتهي تلك المحادثات بعقد اتفاقية 27 يونيو1900م، والتي كان من نتائجها أن اعترفت فرنسا، على يد وزير خارجيتها ديلكاس، بحقوق إسبانيا في المناطق الواقعة بين الرأس الأبيض في الجنوب ورأس جوبي في الشمال[48]، أي تلك المناطق التي سبق لإسبانيا أن أنشأت فيها مواقع دفاعية فيما عرف باسم:" المراكز الساحلية المراكشية ضد المتمردين"[49].

وبالرغم من ما تضمنته هذه المعاهدة من ملاحظات جوهرية[50]، فإن ديلكاس اعتبرها تكفل حرية العمل الفرنسي في موريتانيا، غير أن هذه المعاهدة لم تُغرِ كبولاني، ليبدأ فورها في تنفيذ مشروعه الذي كان يشعر أن تحقيقه صعب المنال، فضاعف من مجهوداته من أجل أن تتاح له فرصة تحقيق ذلك الحلم، ليطلب مقابلة رئيس الوزراء الفرنسي والدك روسو Waldeck Rousseau، حيث تمكن كبولاني بأسلوبه الخاص أن يقنع والدك روسو بضرورة تنفيذ المشروع.

وبناء على ذلك شكل رئيس الوزراء الفرنسي في6 يونيو 1901م[51] لجنة وزارية من أجل دراسة موقف الجزائر وأفريقيا الغربية كل منها على حدة وكذلك البلاد المجاورة[52]، وفي 2 مارس 1902م

---

[46] Loyewski, Otton, *op. cit*, 1938, p. 14.

[47] Gillier, *op. cit*, 1926, p. 110.

[48] A.N.M, E1/10, la convention Franco-Espagnol, le 27 juin 1900.

[49] سعد خليل، مرجع سبق ذكره، ص 250.

[50] لم تحدد معاهدة 1900م بين فرنسا وإسبانيا الأراضي التي لا يجب أن يتجاوزها توسع إحدى الدولتين، فتركت الباب مفتوحا أمام أطماع التوسع، مما قد يذكي النزاع بينهما، كما أنها لم تتضمن أي شرط للتعاون بين الدولتين لفرض السلام في المنطقة، مما قد يكون من الأسباب الرئيسة التي جعلت ريودورو تمثل الملجأ الذي يحتمي فيه رجال المقاومة الموريتانية، فهي المنطقة التي اعترفت بها فرنسا منطقة نفوذ إسبانية. انظر Loyewski, Otton,, *op. cit*, 1938, p.14.

[51] Désiré-Vuillemin, Geneviève, *op. cit*, 1955, p. 299.

[52] A.N.M, E1/10 Service Algérie, Arrêté constituant la commission interministérielle en date du 6 juillet 1901.

أوضحت اللجنة رأيها، الذي تلخص في ضرورة احتلال المناطق الممتدة من غاوة على نهر النيجر إلى الساحل الأطلسي ما عدا المناطق المحصورة بين رأس جوبي والرأس الأبيض[53]، أي المناطق التي سبق وأن اعترفت بها فرنسا في معاهدة 1900م كمناطق نفوذ إسبانية.

**III- الموقف الموريتاني من مشروع كبولاني:" موريتانيا الغربية"**

**1- معارضو المشروع**

أصدر العديد من علماء البلاد فتاوى تحظر التعاون مع الغزاة اعتمدوا فيها على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ودعوا من خلالها للجهاد، كما حذروا من التحالف مع اليهود والمسيحيين. بل إن بعضهم تجاوز ذلك، ليعلن ضرورة الكفاح المسلح، فقد رأوا في الجهاد سبباً رئيساً لمنع احتلال بلدهم من دولة تعارضهم في الدين، فيما اعتقدوا أن مهاجمة الفرنسيين قد تدفع المتعاونين مع فرنسا إلى التراجع عن موقفهم[54] وهو رأي تزعمه الشيخ ماء العينين.

عموما، كان موقف العلماء أصحاب تفضيل المقاومة مصدر قلق للفرنسيين؛ إذ أحبطت السياسة الفرنسية التي تهدف من بين ما تهدف إلى إضفاء الطابع الفرنسي على البلاد واستيعابها الثقافي. لكن معارضة الوجود الفرنسي تحولت من الخطاب النظري إلى العمل العسكري؛ ليلعب الشيخ ماء العينين دورا قياديا في رفض الاحتلال الفرنسي.

وفي هذا السياق، تبادل المراسلات مع الزعماء في البلاد يحثهم فيها على الوقوف أمام التوسع الاستعماري. من ما جعله يحظى بتقدير كبير وسمعة طيبة بين القبائل الموريتانية المناهضة للاستعمار وخاصة قبائل شمال موريتانيا وجنوب المغرب، هذا إضافة لمكانته عند ملوك المغرب. وهو وضع استغله الشيخ ماء العينين، حيث قاد حلقة مهمة من حلقات المقاومة الوطنية ضد الاستعمار الفرنسي.

**2- مؤيدو المشروع**

رأينا فيما سبق كيف حاول ديلكاس وزير خارجية فرنسا أن يخلق ظروفا دبلوماسية مواتية لتنفيذ مشروع احتلال موريتانيا، كما رأينا كيف اعتمده رئيس وزراء فرنسا، ليشكل جزءا من اهتمامات فرنسا الاستعمارية في غرب أفريقيا، وأوكلت مهمة تنفيذه إلى كبولاني بالطرق التي اقترحها والتي يراها مناسبة، ليبدأ بعد أن اجتياز تلك الموانع يعد العدة لخوض غمار جديد، فكان ذلك بمثابة الانتقال من الواقع النظري إلى الواقع التطبيقي.

بيد أن كبولاني لم يكن يساوره الشك في أن رؤساءه لن يعتقدوا في جدوائية عمله ولن يساندوه إلا في حالة نجاحه، وفي مواجهة هذا الموقف الحرج استفاد كبولاني من المعاهدات التي كانت تنظم العلاقات بين فرنسا والقبائل الموريتانية، ليبدأ خطوته الأولى مستغلا المنافسات داخل الإمارات الموريتانية من جهة، واحتدام الخلاف بين الأمراء وشيوخ الطرق الصوفية من جهة ثانية، حيث كان هؤلاء الشيوخ يشكون من ابتزاز الأمراء للشعب[55].

---

[53] A.N.M, E1/10 Procès-verbal de la commission interministérielle, en date du 3 mars 1902.

[54] محمد الأمين ولد سيد أحمد، السلطة والفقهاء في إمارة الترارزة خلال القرن 19 ميلادي، ط 1، مطبعة المنار، نواكشوط،2003، ص 211.

[55] جمال زكريا قاسم و صلاح العقاد، **بدء التدخل الأوربي والاحتلال الفرنسي، الجمهورية الإسلامية الموريتانية، دراسة مسحية شاملة**، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة 1978م، ص 43 والخليل النحوي، مرجع سبق ذكره، ص 328.

إن التقسيم الوظيفي[56] للمجتمع الموريتاني جعل كل الحكام الفرنسيين في السنغال في حيرة من أمرهم تجاه موريتانيا. ولاغرو إذا احتار كبولاني كغيره من الحكام، خاصة وأنه أصبح يباشر العمل في موريتانيا بعد أن أوكلت إليه مهمة التغلغل في المنطقة، وبالرغم من أن كبولاني قد رسم، في تقريره، الخطة التي سيعمل بمقتضاها، فإنه ركز، في تقريره، على فئة الزوايا وعدم معاداتها ومحاولة جذبها إلى جانبه لئلا يزيد ذلك من نفوذها، وبالرغم من هذا وذاك، فإن كبولاني استغل وبصورة خاصة النزاع القائم بين أمراء الترارزة[57].

وبناء على المخطط الذي سبق لكبولاني أن رسم؛ وعلى الوضع الداخلي لموريتانيا، فقد استثمر كبولاني ثقافته الدينية ودبلوماسيته وشعاراته وتعهداته لبعض زعماء الطرق الصوفية في موريتانيا، ليجعلهم بذلك بين خيارين أحلاهما مرٌّ: استمرار الغارات والحروب القبلية برفض الاستعمار أم توفر الأمن والسلم والاستقرار بقبول الاستعمار[58]، فكتب من أجل ذلك إلى الفقيه بابه بن الشيخ سيديا مستفتيا إياه عن: «هل يجوز للمسلمين أن يجاهدوا النصارى والحال أن هؤلاء لا يمنعوهم من تطبيق شعائرهم بل يعينوهم على تنصيب القضاة ونحو ذلك، خاصة وأن المسلمين في هذه البلاد قد علموا أنهم لا يملكون من القوة ما يملكه مسلمو جنوبي المغرب؟»

إن هذا السؤال، وإن كانت تشتم فيه رائحة التهديد فإنه قد استقطب الفقيه بابه بن الشيخ سيديا، بما يوفره –ظاهريا- من امتيازات ومزايا في حالة قبول الاستعمار، تلك الامتيازات التي كانت الشغل الشاغل للفقيه بابه بن الشيخ سيديا وبعض قبائل الترارزة[59]، حيث نلاحظ أنه أجاب، في هذه الحالة، ويعني في الوقت الذي لا يتعرض فيه النصارى للمسلمين في شيء من دينهم، بل يساعدون على ترسيخه بتنصيب القضاة وما إلى ذلك من الأمور المساعدة، في هذه الحالة، ينبغي للمسلمين"أن يهادنوا النصارى ولا يقصروا فيما يجلب لهم العافية، وألا يتعبوا أنفسهم بالمحاربة، كما تشهد له قواعد الشريعة ونصوصها"[60].

ولعل بابه بن الشيخ سيديا أغرته الأهداف التي ذكر كبولاني أن فرنسا جاءت من أجلها، حيث أقنع زعماء الطرق الصوفية بأنه إنما جاء من أجل نصر المظلوم وردع الظالم، وحقن الدماء وإيقاف الحروب والغارات وعمليات النهب التي كثيرا ما اشتكى منها الزوايا كما شاطر الشيخ سعد بوه الفقيه بابه بن الشيخ سيديا في موقفه من الفرنسيين[61]، مما جعل الشيخين من أجل تسويغ موقفهما أمام الرأي العام الموريتاني يكتبان رسائل مطولة يشرحان فيها موقفهما ويحاولان إعطاءه الشرعية من خلال الأدلة التي يرونها مقنعة وسليمة[62].

---

[56] إن تقسيم المجتمع الموريتاني تقسيم وظيفي أكثر منه تقسيما طبقيا – قبليا، فهو تقسيم أملته ظروف اجتماعية واقتصادية وسياسية، حيث إنه كان يرمي إلى نوع من التكامل الاقتصادي والسياسي في ظل ظروف معينة ولعل واقع المجتمع في الوقت الحاضر من أبرز الأدلة على ذلك، كما أن التقسيم نفسه يؤكد ذلك، إذ نرى بعض القبائل التي امتهنت مهنا وهي في ذات الوقت تنتمي إلى قبائل لها مكانتها الاجتماعية المغايرة في ذلك التقسيم.

[57]على وجه الخصوص النزاع الذي قام بين الأمير أحمد سالم بن أعلي والأمير سيدي بن محمد فال بن سيدي المعروف بسيدي بن سيدي.

[58] الخليل النحوي، مرجع سبق ذكره، ص ص 328-329.

[59] A.N.M, Compte rendu de Coppolani au gouverneur général sur la mission du Trarza en date du 19 janvier 1903.

[60]بابه بن الشيخ سيديا، **وصية في وجوب طاعة الفرنسيين**، مخطوط، المعهد الموريتاني للبحث العلمي تحت رقم 2097، ورقة رقم 3.

[61] نفس المخطوط، ورقة رقم5.

[62] الخليل النحوي، مرجع سبق ذكره، ص 329.

وفي هذا الصدد ذكر بابه بن الشيخ سيديا أن الفرنسيين لا يتعرضون للدين وأن العدل لن يعم إلا بالدخول في طاعة السلطان المخالف في الدين، فطاعته أولى من الخروج عليه، كما عبر الشيخ سعد بوه عن رأيه في رسالة[63] ذكر فيها ما عليه الناس في البلاد من الفقر والفاقة والتناحر، وأن الجهاد لا يتأتى إلا بوحدة الصف واجماع الكلمة مستعرضا قوة فرنسا وانتصاراتها في مناطق أخرى وقهرها لأمراء السودان، وهكذا اعتبر الشيخان أن الصمود في وجه الفرنسيين غير ممكن، وإنما دخول البلاد تحت السيطرة الفرنسية عون على الأمن والاستقرار والعدل، ليطمئنا إلى هذا المنطق ويؤسسا عليه موقفهما، فقد كانت العافية وسيادة الاستقرار في البلاد الشغل الشاغل لهذا الجيل من الفقهاء، إذ اعتبر هذا الجيل أن السيطرة الفرنسية على البلاد هي أخف الضررين، وأن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر، والدولة لا تستقيم على الظلم، كما أن المصلحة تأتي كرهاً، وهذا يعني أن كلا من بابه بن الشيخ سيديا والشيخ سعد بوه ومن التف حولهما لم يكن، في اعتبارهم، أن البلاد تخضع لاحتلال أجنبي بدخول الفرنسيين، وإنما كانوا يتصورون أن الفرنسيين هم الذين يخضعون لإرادة أعيان البلاد وأنهم مسخرون لمساعدتهم في تحقيق الهدف الأسمى الذي يصبون إليه: الأمن والسلم الاجتماعي[64]، غير أن استجابة كل من بابه بن الشيخ سيديا والشيخ سعد بوه للمطالب الفرنسية وبالتالي تحقيق مآربهم في منطقة القبلة لا يدفعنا إلى تعميم هذه الاستجابة على جميع زعماء الطرق الصوفية في موريتانيا، فبقدر ما سيَّر الفرنسيون كلا من بابه والشيخ سعد بوه من أجل بلوغ أهدافهم الاستعمارية في موريتانيا، نرى الشيخ ماء العينين يتزعم حلقة مهمة من حلقات المقاومة الوطنية، بيد أن هذه الاستجابة قد قتلت الحافز الديني لدى السكان، مع العلم أن هذا الحافز هو وحده الذي كان، بإمكانه، أن يوحد كل الصفوف ويثير الغيرة والشعور؛ إذ هو مصدر كراهية للاستعمار من منظار ديني بحت، كما أن سكان المنطقة لم تكن لديهم نحو الفرنسيين نظرة مستغل أو مضطهد لا يخشون منه على ثروة أو أرض، وإنما على الدين وحده، بل إن معظمهم كانوا يتوخون من وراء دخول الاستعمار إلى المنطقة فوائد مادية وأمنية كثيرة، ولكنها مهما كانت قيمتها لا تعادل ما سيلحق بالدين من ضرر.

ويجدر بنا- في هذا الصدد-أن نضع سؤالا، إن لم يكن يفرض نفسه، وهو لماذا اختلف موقف بابه بن الشيخ سيديا-وهو رجل من المفروض أن يكون سلفيا- عن موقف والده سيدي محمد وجده الشيخ سيديا الكبير إذا ما قورن مع موقفهما في المنطقة[65]؟

قد يكون من الأسباب التي جعلت بابه بن الشيخ سيديا يختلف، في موقفه تجاه الوجود الفرنسي في المنطقة عن موقف كل من جده ووالده أنه عاش فترة اضطرابات صاخبة[66]، كما أن قبيلته خاضت حربا شرسة ضد قبيلة إجيجبة المجاورة التي حظيت بدعم من إمارة البراكنة، في حين لم يحظ هو بدعم مماثل من إمارة الترارزة التي ينتمي إليها، مما كان سببا في اتساع الهوة بينه وبني حسان بصفة خاصة، وبين الزوايا وبني حسان بصفة عامة، هذا إذا علمنا أن الحرب سواء كانت بين الزوايا أنفسهم أو بين بني حسان بعضهم بعضا، أو بين الزوايا وبني حسان لا تعني سوى نهب ممتلكات الزوايا[67].

---

[63] "النصيحة العامة والخاصة في التحذير من محاربة الفرانصة".

[64] الخليل النحوي، مرجع سبق ذكره، ص 330.

[65] لقد كان الجد داعية سلم وإصلاح، وسخر نفوذه لإصلاح ذات البين ولم شتات المسلمين في بلده وعلى ذات النمط سار الشيخ سيد محمد، انظر الخليل النحوي، مرجع سبق ذكره، ص 330.

[66] نلاحظ أن في هذه الفترة قد تعاقب على الحكم في إمارة الترارزة التي ينتمي إليها بابه بن الشيخ سيديا (18) أميرا خلال (50) سنة وكلهم اغتاله أقرب الناس إليه.

[67] Désiré-Vuillemin, Geneviève, *op. cit*, 1955, p. 303.

وتجدر الإشارة، في هذا الصدد، إلى أن التأثير الذي خلفه فشل محاولات كل من الشيخ سيديا والشيخ سيدي محمد الرامية إلى تحقيق وحدة الصف في مواجهة الاستعمار الوافد، هو الذي جعل بابه بن الشيخ سيديا يدرك أن المخرج الوحيد من الأزمة هو التقرب من الفرنسيين القادرين على ردع بني حسان ومنح الزوايا ما يناسبهم من امتيازات، في الوقت الذي كان فيه على فرنسا الامتناع عن التدخل في الشؤون الدينية[68]، وكان موقف الشيخ سعد بوه كموقف زمليه بابه بن الشيخ سيديا، حيث أدرك الأول أنه- إلى جانب اهتمامه بأمن الزوايا وسلامتهم- يحتاج إلى دعم من سكان المنطقة[69]، وكذلك من الفرنسيين في السنغال، حيث ينتشر مريدوه وحيث مصالحه المادية.

والغريب، في الأمر، أن التنظيم الوحيد لدى الزوايا هو طرقهم الصوفية التي يمارسون من خلالها سلطتهم الروحية، ويحافظون بها على مصالحهم المادية والثقافية، والأغرب من ذلك أن هذه الطرق مثلت القناة التي كانت تربط ما بين السكان المحليين من جهة والفرنسيين من جهة أخرى.

والأغرب من هذا وذاك، أيضا، أنه بحكم ذات الخصائص، كانت هذه الطرق الإطار التنظيمي لمقاومة الاستعمار، وفي كل المواقف تصدرت القادرية المقام الأول ولكن لماذا اختلف موقف زعماء القادرية في جنوب البلاد[70] عنه في شمالها[71]؟ هذا مع العلم أن الجميع يشترك في عوامل كثيرة – منها على سبيل المثال لا الحصر- الطريقة الصوفية الواحدة، والطبقة الاجتماعية ذات المصلحة المشتركة، خاصة وأن الشيخ ماء العينين والشيخ سعد بوه أخوان.

قد يكون للموقع الجغرافي دلالة واضحة في التأثير على هذا الجانب أو ذاك، وعلى مدى تجاوب كل من الموقفين مع الظروف المحلية على جميع الأصعدة الاقتصادي منها والسياسي والاجتماعي؛ فمنطقة الگبلة إلى جانب كونها ناضجة للسقوط في أحضان الاستعمار لما كان لها من صلات قديمة بالفرنسيين، كانت تعيش صراعات وحروبا قبلية مزمنة داخلية وخارجية، إضافة إلى الصراع بين القوتين الاجتماعيتين:" الزوايا وبني حسان"، وما خلفه ذلك من استغلال واضطهاد، جعل الزوايا المهزومين عسكريا – والذين فرض عليهم عدم حمل السلاح[72]- ينظرون إلى بني حسان حاملي السلاح نظرة احتقار وذلك بإدخال البعد الديني عنصرا في هذا الصراع.

ومن الممكن أن تكون هذه الأوضاع قد تركت في نفوس الذين تقربوا من الفرنسيين شعورا بأن هناك فراغا بينهم وبين بني حسان، وإن كان من بين هؤلاء من تقرب إلى الفرنسيين لتحقيق طموحاته الشخصية في الولاية والحكم، فكان هذا التقرب بمثابة سد الفراغ الناجم عن السيطرة والسطوة التي يمارسها المحاربون على الزوايا.

ولكن هل هذا يسوغ موقف كل من الشيخين بالنسبة للرأي العام الموريتاني؟

قد يكون الأمر كذلك في رأي أولئك الذين ناصروا هذا الموقف، خاصة، وأن الاستعمار-بالرغم من أنه مرفوض لذاته-قد تحقق في ظله بعض ما توخاه هذان الشيخان،" سيادة الأمن"، إذ تحولت فوهات البنادق إلى المستعمر، وأصبح الاستعمار هاجس الجميع، فانشغل الناس بالعدو المشترك

---

[68] A.N.M, E1/9 Décision du Ministre des colonies, *op. cit*.

[69] لقد كان يتطلب من الشيخ سعد بوه في منطقة القبلة بعد أن قدم إليها من محل سكنه الأصلي الحوض الحصول على ولاء سكان المنطقة.

[70] من أمثال بابه بن الشيخ سيديا والشيخ سعد بوه بعد وصوله إلى المنطقة.

[71] من أمثال الشيخ ماء العينين الذي حمل لواء المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الفرنسي، وقد ظل يقاوم الاحتلال، حتى توفي، ليرث ذلك الدور أبناؤه من بعده.

[72] كان من نتائج حرب شربة، تحريم حمل السلاح على فئة الزوايا.

الجديد عن الصراعات الداخلية[73]، ومن ناحية أخرى، فقد كان الاستعمار-في رأي هؤلاء-شر لا بد منه، والدخول في طاعته أولى من الخروج عليها، خصوصا وأن الزوايا في كل الأحوال هم الضحية.

ولكن ألم يكن هناك طريق آخر يمكن لكل من الاثنين سلوكه، لتجنيب البلاد كارثة الاستعمار؛ خاصة وأنهما يتمتعان بمكانة علمية واجتماعية ونفوذ سياسي في المجتمع، ويتخذان ذات الموقف الذي اتخذه الشيخ ماء العينين في الشمال، والذي حمل راية المقاومة والجهاد ضد الاستعمار في حين أن دوره العلمي والأدبي لا يقل أهمية عن دوره في الحقل السياسي[74]؟

قد يكون في ما سبق ما ينير الطريق أمام صاحب الفضول العلمي الذي يسعى بتلهف إلى استكشاف خفايا الأمور، بيد أن ثمة سببا آخر قد يكون له تأثير أعمق وهو محافظة الشيخين على مصالحهما الاقتصادية في السنغال، حيث ينتشر مريدوهما، ولا شك أن عدم التعاون مع الفرنسيين يعرض تلك المصالح للضرر.

وهكذا أصبح على كبولاني -بعد أن تجاوز العقبات التي اعترضت تنفيذ مشروعه-أن يضع خطة تتضمن مراحل تنفيذ مشروع إنشاء" موريتانيا الغربية"، ليبدأ خطوته الأولى في تثبيت دعائم النفوذ الفرنسي بموريتانيا باحتلال الترارزة كمرحلة أولى ثم البراكنة في المرحلة الثانية، ليفتح ذلك المجال للتقدم نحو مرتفعات تگانت التي كان وصوله لها نهاية طموحاته حيث اغتيل في 12 مايو 1905 على يد مجموعة من رافضي الاحتلال بقيادة سيدي ولد مولاي الزين.

## المصادر والمراجع


### I- بالعربية

### 1- المخطوطات

بن الشيخ سيديا، بابه، وصية في وجوب طاعة الفرنسيين، مخطوط، المعهد الموريتاني للبحث العلمي تحت رقم 2097.

### 2- المراجع

محمد علي ذهني، إلهام، جهاد الممالك الإسلامية في غرب أفريقيا ضد الاستعمار الفرنسي (1890-1915)، دار المريخ، الرياض 1988م.

زكريا، قاسم جمال والعقاد، بدء التدخل الأوربي والاحتلال الفرنسي، الجمهورية الإسلامية الموريتانية، دراسة مسحية شاملة، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة 1978م.

دولت أحمد صادق وآخرون، الجغرافية السياسية، الانجلو المصرية، القاهرة، 1975.

دي - جي - فاج، تاريخ غرب أفريقيا، ترجمة وتقديم وتعليق د/ السيد يوسف نصر، مراجعة الترجمة إلى العربية بهجت رياض صليب، دار المعارف، الطبعة الأولى، القاهرة 1982م.

محمد إسماعيل محمد وعبد الخالق عامر، قضية موريتانيا، دار المعرفة، الطبعة الأولى، القاهرة، 1961.


[73] لم يكن الأمن والاستقرار اللذان تما في ظل الاستعمار ينبعان من قوانين مطبقة أو شريعة معتمدة يخافها الجميع، وإنما كانا نتيجة لعوامل خارجة عن إرادة السكان المحليين؛ إذ نلاحظ أن الاستقرار لم يتحقق إلا بعد أن تمكن الفرنسيون من تجريد القبائل من السلاح، حتى لا يظل عدة للمجاهدين ضدهم، وإن كان ذلك لم يتوفر لفرنسا إلا بعد توقف المقاومة الوطنية سنة 1934م.

[74] عبد الرازق إبراهيم، عبد الله، مرجع سبق ذكره، ص 126 وما بعدها.

ولد سيد أحمد، محمد الأمين، السلطة والفقهاء في إمارة الترارزة خلال القرن 19 ميلادي، ط 1، مطبعة المنار، نواكشوط، 2003.
ولد بيه، محمد المحجوب، موريتانيا جذور وجسور، مكتبة القرنين 21/15، انواكشوط، 2016.
خليل، سعد، تكوين موريتانيا الحديثة، رسالة ماجستير، معهد الدراسات العربية، القاهرة، 1977.
عبد الله عبد الرازق إبراهيم، أضواء على الطرق الصوفية في القارة الأفريقية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1990.
النحوي، الخليل، بلاد شنقيط المنارة والرباط، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1987م.

## II- بالفرنسية

### 1- وثائق الأرشيف

A. N. M, E1/9, Lettre du Ministre des colonies au gouverneur général de l'A.O.F, en avril 1898.
A.N. M, E1/9 Rapport de Coppolani au Ministre des colonies sur la mission en date du 4 mai 1899.
A. N. M, E1/9 Rapport de Coppolani au gouverneur général en Algérie sur la mission en date du 5 novembre 1899.
A. N. M, E1/9, Décision du Ministre des colonies, en décembre 1899.
A. N. M, E1/10, la convention Franco-Espagnol, le 27 juin 1900.
A. N. M, E1/9, Lettre du Ministre des colonies au gouverneur général de l'A.O.F, en date du 14 novembre 1900.
A. N. M, E1/10 Service Algérie, Arrêté constituant la commission interministérielle en date du 6 juillet 1901.
A. N. M, E1/10 Procès-verbal de la commission interministérielle, en date du 3 mars 1902.
A. N. M, Compte rendu de Coppolani au gouverneur général sur la mission du Trarza en date du 19 janvier 1903.

### 2- الكتب

Deschamps, Hubert, *Histoire générale de l'Afrique noire*, Tome II, Paris, 1971.
Désiré-Vuillemin, Geneviève, « Coppolani en Mauritanie », *Revue d'Histoire des colonies*, Tome XLII, Paris 1955.
Désiré-Vuillemin G., *La Mauritanie du 19ème siècle à l'indépendance*, *Introduction à la Mauritanie*, Edition C.N.R.S, Paris, 1979.
De Chassey, Francis, *La Mauritanie de 1900 à 1975*, l'Harmattan, Paris 2014.
Gillier, *La pénétration en Mauritanie*, Paris, 1926.
Coppolani, Georges *Xavier Coppolani*, *Fils de Corse*, *Homme d'Afrique*, *Fondateur de la Mauritanie*, L'Harmattan, Paris 2009.

Sall, Ibrahima Abou, *Mauritanie du Sud*, *Conquêtes et administration coloniales françaises 1850-1945*, Karthala, Paris 2007.

Loyewski, Otton, Coppolani et la Mauritanie, *in Revue d'histoire des Colonies Françaises*, Tome XXXII, 1938.

Randau, Robert, *Un corse d'Algérie chez les Hommes bleus*, *Xavier Coppolani-le-Pacificateur*, Imbert, Alger, 1939.

*Revue Géographique Internationale*, Avril 1900, Tome N° 2.